أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله { ذكر رحمة ربك } أي هذا ذكر رحمة ا بعبده زكريا وقرأ يحيى بن يعمر { ذكر رحمة ربك عبده زكريا } وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان وكان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده في النجارة وقوله { إذ نادى ربه نداء خفيا } قال بعض المفسرين : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره حكاه الماوردي وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى ا كما قال قتادة في هذه الاية { إذ نادى ربه نداء خفيا } إن ا يعلم القلب التقي ويسمع الصوت الخفي وقال بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب يا رب يا رب فقال ا له : لبيك لبيك لبيك { قال رب إني وهن العظم مني } أي ضعفت وخارت القوى { واشتعل الرأس شيبا } أي اضطرم المشيب في السواد كما قال ابن دريد في مقصورته : .

(أما ترى رأسي حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى) .

(واشتعل المبيض في مسودة ... مثل اشتعال النار في جمر الغضا) .

والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة وقوله { ولم أكن بدعائك رب شقيا } أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك وقوله { وإني خفت الموالي من ورائي } قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالي على أنه مفعول وعن الكسائي أنه سكن الياء كما قال الشاعر : .

(كأن أيديهن في القاع القرق ... أيدي جوار يتعاطين الورق) .

وقال الاخر : .

(فتى لو يباري الشمس ألقت قناعها ... أو القمر الساري لألقى المقالدا) .

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي : .

(تغاير الشعر منه إذ سهرت له ... حتى ظننت قوافيه ستقتتل) .

وقال مجاهد وقتادة والسدي : أراد بالموالي العصبة وقال أبو صالح : الكلالة وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان Bه أنه كان يقرؤها { وإني خفت الموالي من ورائي } بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباتي من بعدي وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا فسأل ا ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه فأجيب في ذلك لا أنه خشي من وراثتهم له ماله فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده وأن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز

ميراثه دونهم هذا وجه .

(الثاني) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

(الثالث) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [لا نورث ما تركنا فهو صدقة] وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح [نحن معشر الأنبياء لا نورث] وعلى هذا فتعين حمل قوله { فهب لي من لدنك وليا * يرثني } على ميراث النبوة ولهذا قال { ويرث من آل يعقوب } كقوله { وورث سليمان داود } أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث [نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة] .

قال مجاهد في قوله { يرثني ويرث من آل يعقوب } كان وراثته علما وكان زكريا من ذرية يعقوب وقال هشيم : أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله { يرثني ويرث من آل يعقوب } قال : يكون نبيا كما كانت آباؤه أنبياء وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن يرث نبوته وعلمه وقال السدي : يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب وعن مالك عن زيد بن أسلم { ويرث من آل يعقوب } قال نبوتهم وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله { يرثني ويرث من آل يعقوب } قال : يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة أن النبي صلى ا عليه وسلّم قال [يرحم ا زكريا وما كان عليه من وراثة ماله ويرحم ا لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد] وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة عن الحسن قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [رحم ا أخي زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال : هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب] وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح وا أعلم وقوله { واجعله رب رضيا } أي مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه